العجوز وصديقتها الوحيدة فوجدتها جالسة على الأرض ذاهلة حارّة الزفرات مُنْتَحِبة.

ـ صحيح إذن ما يُقال عن الرجال من أنه تكفي رُقية مؤذية أو لقاء أو إكسير لكي يُقْبِل حبّهم أو يُدْبِرا!.

لقد شهدت «أوتاكيم» ولادة «مريم». وعندما ماتت أمّها على فراش الولادة، كانت هي التي أرضعتها، وهي التي ألبستها وزيّنتها عشية زفافها. فمن خيرٌ منها لمؤاساتها؟.

ـ تعرفين زوجك، فما إن تشغلُه فكرة حتى ينسى معها أن يأكل، ويأخذ بالشحوب والنحول حتى ليُظَنُّ أنه عاشق. ألا تعرفين أنه كذلك؟ اليوم عنده هذا الزائر وهو يتغذّى بكلماته، ولسوف ينساه غداً ويعود محبّاً ملحاحاً وأباً نافد الصبر! لقد كان هكذا دائماً، وهكذا أحببته.

ـ عيناه يا «أوتاكيم»، أنتِ لم تَرَيْ عينيه! إنه ليكفيني في العادة أن ألتقيهما لحظة لكي أنسى الآلام والهواجس. ولو حدّثتني عيناه لكنت أهملت بناتِ شفتيّه وحركاتِ يديْه. بيد أن عينيْه لم تقولا لي شيئاً هذا المساء.

ووبْختها «أوتاكيم» بمَرَح:.

ـ ألا تعلمين أنه ما من رجل يكون رقيقاً عطوفاً بحضور شخص غريب؟ لن يلبث الزائر أن يذهب للنوم فيُقبل سيّدنا للقائك. هيّا، دعيني أحلّ ضفائرك.

واستسملت «مريم» لليديْن اللتين لم تنفكّا عن هدهدتها. وها قد خيّم الليل وسوف يأتي رَجُلُها. إنه لم يسبق له قطّ أن ابتعد عن جانبها. واستلقت ورأسها فوق وسادة ورجلاها العاريتان فوق أخرى أرفعَ منها. وجلست «أوتاكيم» بطرف عجيزتها فوق صندوق بجانب السرير وأمسكت بأصابع سيّدتها وأخذت تداعبها على مهل وترفعها أحياناً إلى شفتيها. وغمرت بناظريْها الوجه الورديّ الذي يؤطّره شعر ذو انعكاسات بلون الخُبّازى. ولقد ودّت أن تقول لها: